حق فى التفكير أو التصرف المستقل ، وربما كانت فى ذلك أكثر إمعانا من البلشفية ذاتها ؛ فالفرد لا وجود له فى نظر الاشتراكية الوطنية ؛ والدولة هى كل شئ . بيد أن الدولة والحكومة والزعامة ومصدر السلطات كلها ليست سوى العصبة الهتلرية ومن ورائها القوات النازية المسلحة ؛ وهذا الامعان فى تطبيق الفكرة الحزبية لا يقتصر على الدولة والتشريع ، بل يمتد الى الاقتصاد والثقافة وكل ما هنالك مما له مساس بتكوين الفرد أو توجيهه ، سواء فى جسمه أو عقله وروحه

وكما أن البلشفية تزعم أنها حركة ومبادئ عالية لاصلاح الدولة والمجتمع ، فكذلك تزعم الفاشستية الايطالية والنازية الألمانية . بيد أن الفاشستية لم تنجح كحركة عالية ، وإن كانت قد ظهرت آثار يسيرة منها فى بعض الدول الأخرى ويمكن القول بأنها لقيت وما زالت تلقى فى جميع العالم المتمدين أشد صنوف المعارضة ، بل ما زالت رغم كل ما عملته لاصلاح شؤون ايطاليا الداخلية تثير بوسائلها عواطف الاشمئزاز والمقت ؛ كذلك النحاية الهتلرية لم تجاوز حدود ألمانيا ، ولم تلق مزاعمها الجنسية بالأخص صدى ، وقد وصفت نزعاتها بأنها وثنية بربرية ؛ والخلاصة أن هذه الحركات الطاغية التى قامت بالعنف والارهاب وما زال يسندها العنف والارهاب بقيت حركات محلية ، ومن المحقق أن مصايرها ترتبط بمصاير زعمائها ومصاير القوى العنيفة التى تسندها ، ومن المرجح أنها ستنهار عند حدوث أول انفجار عام . على أنه لا ريب أن هذا الطغيان الشامل الذى يسحق شعوبا عريقة بأسرها ، وذلك التطور المدهش فى شؤون الزعامة والحكم ، وهو تطور ترتب عليه أن تتب أحط العناصر والطبقات الى أسمى الزعامات السياسية والقومية ؛ وذلك الاستعباد المزرى لكرامة الفرد ولشخصه وعقله وروحه ؛ وتلك الوسائل البربرية لتدعيم الشهوات الحزبية والمذهبية ، وهى وسائل تذكرنا بالعصور الوسطى ؛ وتلك الأحقاد القومية والجنسية التى تثيرها أذهان متعصبة منحطة : تقول لا ريب أن هذه الخواص التى تلازم نظم الطغيان الحاضرة ، والتى هى ملاذ قوتها وحياتها ، هى فى الواقع دلائل واضحة على انحلال المدنية الغربية الحاضرة ، وعلى قرب انحدارها الى غمر جديدة من الاضطراب والفوضى

« مؤرخ »

الفلسفة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كلمة تثير فى النفس ما تثير من غموض وإبهام ، وتؤذن بشىء من الغرابة والخفاء . يقال : تفلسف فلان إذا ظن أنه عمن فى الغريب ولا يأتى بما ألفه الناس . وقد يُرمى الفلاسفة بأنهم « يعيشون مع الملائكة » ويسبحون فى عالم الخيال ، لا يشعرون بما يشعر به من حولهم ، ولا يقيسون الأمور بما توارد عليه العرف المألوف . يقال : هذا فيلسوف ، وما لنا ولهذه الفلسفة ، إذا أريد عدُّ الحدث عنه وحديثه فى عالم النظريات حيث لا تنال الحقيقة الواقعة ما تستحق من تقدير . لذلك انتبذت الفلسفة ، وانصرف الناس عنها ، ونظروا اليها نظرة ازدراء واحتقار ، أو توجس وخيفة . فالمصريون والمتحضرون ينتقصون الفيلسوف مدعين أنه لا يعيش فى عصره ، ولا يأخذ بقسط وافر من شؤون الحياة ، والجامدون والمتأخرون يرمونه بالألحاد والزندقة والخروج على الأديان

والفلسفة فى بلدنا بوجه خاص غريبة عديمة النصير والأعوان ، لا تكاد تجد من يتحبب إليها ، ويأخذ بيدها ، ولا من يصورها للناس فى شكلها الواضح ومظهرها الصحيح . فالنظم التعليمية العامة لا تعمل على نشرها ، ولا تقف الناس على حقائقها ؛ والجمهور يفر منها ، ولا يحاول أن يتفهمها ليؤمن بما لها من أثر فى تهذيب الأفراد والجماعات ورفع مستواهم العقلى والخلقى ؛ والخاصة يتبادلون منها أفكاراً بالية وآراء عتيقة قلّ أن تُعرض عرضاً مستقيما ، وكأن الفلسفة فى نظرهم ما جاء به أفلاطون وأرسطو دون أن يكون للقرون الوسطى والعصور الحديثة أبحاث يعتد بها أو نظريات يقام لها وزن . وهناك طائفة أخرى جنت على الفلسفة جنايات شنعاء ، وزادت الناس فيها بغضاً وكراهية ، وهى جماعة أدعياء الفلسفة الذين يتهجمون عليها ، ويكتبون فيها وينشرون ، ويناقشون ويعترضون ، دون أن ينفذوا إلى صميمها ويدركوا كنهها ؛ وفى الصحف اليومية والأسبوعية من أمثلة هذه الجرأة العظيمة الشىء الكثير . وكأن العلوم الفلسفية فى هذا البلد حمى مباح ، وسلعة تعرض فى مختلف الأسواق ، ومتاع

يستخدمه من عرف ومن لم يعرف قدره . بل نلاحظ فوق هذا أنه كثيراً ما كتب في الفلسفة من لم يجد السبيل إلى الكتابة في موضوع آخر ؛ وبذا انعكست الآية وأصبحت الأبحاث الدقيقة مجال من لا طاقة لهم بها ، وظهرت الفلسفة في ثوب مشوه منقوص ؛ وإذا كنا نعيب على هؤلاء الأدعياء جرأتهم فلا يفوتنا أن نأخذ على الفلاسفة المختصين تقصيرهم في التعريف عن أنفسهم وتهاونهم في الدفاع عن فنونهم وعلومهم

ليست الفلسفة غريبة بالقدر الذي يدعيه المرضون عنها ، ولا خيالية بدرجة تباعد بينها وبين الحياة وشؤونها . فللزارع فلسفته في حقله ، وللصانع فلسفته في مصنعه ، وللتاجر فلسفته في متجره ، وللرجل فلسفته مع زوجه ، وللزوجة فلسفتها مع بنيها . لكل من هؤلاء وهؤلاء طريقة خاصة في تفهم الأمور المحيطة به والحكم عليها ووزنها بميزانها الصحيح ؛ وتلك ولاشك فلسفة ذات مغزى عظيم . وما أصدق أرسطو إذ يقول : الانسان حيوان فيلسوف . على أن الفلسفة بمعناها الدقيق لا تخرج عن دائرة الحياة العملية والتجارب اليومية ؛ وكل همها أن تشرح هذه التجارب وتفسرها تفسيراً يرتضيه العقل ويطابق الواقع . فظواهر سرورنا ، وألمنا ، وقواعد سلوكنا ، ومعاملتنا ، وآراؤنا ومعتقداتنا ، هي في جملتها موضوع الدراسات الفلسفية ، ومن منا يمر عليه يوم — بل ساعة — دون أن يحكم على شيء بأنه خير أو شر ، وعلى آخر بأنه صواب أو خطأ ، وعلى ثالث بأنه جميل أو قبيح ؟ وهذه الأحكام الثلاثة هي شغل الفيلسوف الشاغل وعمله الدائم ، يعنيه أن يدرس ظواهرها ، ويضبط قوانينها ، ويبين للناس كيف يكونونها التكوين الصحيح . فالفلسفة إذن من الحياة في صميمها ، أو إن شئت هي الحياة كلها ؛ وكيف لا وهي دراسة للانسان في مختلف أحواله الفردية والجمعية ، الفكرية والخلقية

وإذا كانت هذه منزلة الفلسفة فمن العبث أن نهملها ؛ أو أن نضعها في الصف الأخير من أبحاثنا ، وهل حاجتنا إلى تعرف المادة في تمددها وانكماشها ، والأجسام في مغناطيسيتها وجذبها ، أمس من حاجتنا إلى تعرف أنفسنا في ميولها ومشاعرها ، وتنافرها وتآلفها ؟ نعم إن دراسة الانسان عسيرة ودقيقة ، غير أنها لهذا السبب نفسه ضرورية ولازمة ؛ ولا أظنها أقل تشويقاً من أية دراسة أخرى . فعناصر الثقافة العامة التي تشغل الأذهان الآن لا يصح أن تقصر على الجغرافيا الأقليمية ، والاقتصادية ، والهندسة النظرية والفراغية ، والكيمياء ، والطبيعة وما إليها دون أن يكون للفلسفة فيها نصيب كبير . على أن هذه العلوم نفسها نشأت في حجر الفلسفة وتربت في كنفها ؛ فقد كان الأغريق الأول يطلقون كلمة فلسفة على أية معرفة كيفما كان نوعها ، وكان العلم والفلسفة متآخيين ومتآزرين ، وكثيراً ما كان الفيلسوف عالماً يقنن القوانين العلمية ويوضحها ، وكثيراً ما اهتدى إلى نظريات علمية على ضوء الدراسات الفلسفية . فطاليس وفيثاغورس الفيلسوفان الأغريقيان كانا رياضيين وعالمين في الطبيعة ، وقد كتب أفلاطون على باب مدرسته : « لا يدخل هنا أحد ممن لم يلموا بأصول الهندسة » ، وإذا جاوزنا العصور القديمة وجدنا أن ديكارت أبا الفلسفة الحديثة هو مخترع الهندسة التحليلية ، وأن ليبنتز كبير فلاسفة الألمان في القرن السابع عشر هو مبتكر حساب التفاضل . ولئن كانت العلوم قد انفصلت عن الفلسفة الواحد بعد الآخر وكونت دراسات مستقلة لا تزال جميعها مسودة بلهجة وروح فلسفية ، وفلسفة العلوم اليوم هي النقطة الحساسة والرئيسية في كل مادة من مواد الدراسة الانسانية . فالعلم يتزع ثانية إلى أن يكون فلسفياً وأن يعود أيضاً إلى كنف أم غذته بلبانها من قديم ، والأدب أيضاً يتأثر بالفلسفة في أسلوبه ومعانيه ، وغاياته ومراميه ، وربما كان السر في نجاح كثير من الأدباء المعاصرين تلك النزعة الفلسفية التي رق بها شعورهم ، ودق تفكيرهم ، وسمت عبارتهم

فليس ثمة بد من أن نتذوق الفلسفة ونذيقها للناس ما دامت الحياة تملي علينا درسها ، والعلم الصحيح يعتمد عليها ، والأدب الراقي ينهل من حياضها ؛ ومن العار أن نبقى إلى اليوم وليس في لغتنا أبحاث فلسفية سهلة يجد فيها العامة سلوتهم ، ولا دراسات عميقة يشحذ فيها الخاصة أذهانهم . إن البحث الفلسفي ، كبقية الأبحاث الأخرى ، ضرب من التثقيف لا يصح أن تحرم منه أمة من الأمم ؛ هذا إلى أنه يجدر بنا أن تكون لنا فلسفة متميزة ذات لون خاص ومبادئ خاصة ، وأن ينقل الغرب عنا كما ننقل عنه ، وبذا تنتظم دورة الفلك ، ويعود التاريخ إلى مجراه ، وتتصل الفلسفة العربية الحديثة بالفلسفة الاسلامية القديمة ، وإذا كان الناس يتحدثون عن فلسفة انجليزية وأخرى فرنسية وثالثة ألمانية ، فلم لا يتحدثون عن فلسفة مصرية وشامية وعراقية ؟

ابراهيم بيومي مدكور